ثقافة وادب

عاش الحليب الذي أرضعت يا عمان

شعر

توفيق زياد

« مقاطع من قصيدة طويلة »

يا حادي العيس سلّم لي على عمان
وقبّل الجرح، واحضن اهلها الشجعان
وقبّل المدفع الرشاش ، في يدها
وخندق المجد ، والساحات ، والجدران ،
واهتف بها : راسك المرفوع معجزة
عاش الحليب الذي ارضعت يا عمان
فواصلي الدرب ، يا مصلوبة آنفت
ان تنحني ، لحظة ، للسيف والسلطان
وواصلي الدرب ، يا عماننا ، فغدا
ندق بيرقنا الدامي على « بيسان »

•

باحادي العيس، دب الصوت في الشطين
وقل لأهلي بكائي اطفا العينين
خناجر الظلم ، في قلبي وفي عنقي
فخذ بكفي، وبعني واشتري لي عين

•

باحادي العيس دب الصوت في الشطين
تكسّر السيف في كفي انا نصفين
لكنني فوق صلباني اقاتلهم
فخذ فؤادي وروحي واعطني سيفين

•

باحادي العيس سلّفني ولو دمعة
جفت دموعي على اخواني السمعة
ودعتهم يوم نكبتنا ، فلم ارهم
حتى اني نعيهم في ليلة الجمعة

•

يا حادي العيس منديلي انا مبتل
فابن منديلك المصنوع من مخمل
حملي ثقيل ، ولكني له ، فانا
خلقت.. من عنصر الفولاذ ، كي احمل

•

يا حادي العيس، سلّم لي على السلط
فارضها مزروعة ، موتا على موت
وان مررت ، على مصلوبة عريت
فالق ثوبا يغطيها فذي اختي

•

يا حادي العيس سلّم لي على اربد
رشاشها ما زال في متراسها يرعد
واحمل لها ، ضمة من ورد دبرتنا
وقل لها ليس فينا غير ان نصمد

•

يا حادي العيس سلّم لي على الزرقا
فقد اضاع اخي ، في ساحها ، عنقا
وقل لها ان للتاريخ منطقه
سيسحق العرش ، لكن شعبنا يبقى
(تذييل حتى لا يتوهمن احد)
يا حادي العيس سلّم لي على القدس
وقل لها : لو نسيتك اقطعي راسي

•

يا « عوض النابلسي » !
(الاسم الحركي : فراس)
اعرف انك انت الان تموت
خلف المتراس
تنزف روحك من جرح
في الراس
لكنك تقرا شعرا
عبر مئات الاميال ـ انا
اسمع صوتك
خشنا مثل يدي حجّار
انك تنشد اغنية تحفظها
منذ
بدات
تعي
معنى
الكلمة
اغنية كتبتها يد ثائر
من « جبل النار »
بالفم ، على جدران السجن بعكا
ليلة اعدامه
في ثورة ستة وثلاثين
اني اسمع صوتك
شفافا
مصلوبا
مطعون ..
وارى حتى شفتيك الزرقاوين
تشدان على الكلمات
حتى
تولد ..
حرفا ،
حرفا :
لا تظن دمعي خوف
دمعي على اوطاني
على كمشة زغاليل
في البيت جوعاني
مين راح يطعمها بعدي ـ
واخواني
شباب اثنين ـ قبلي !..
في المعركة راحوا
يا « عوض النابلسي »
في هذه اللحظة انت تموت
خلف المتراس
اني حتى ابصر روحك
كيف تسيل
مع آخر مقطع
من تلك الاغنية
المكتوبة بالفحم على
جدران السجن بعكا
في ليلة اعدام :
ظنيت إلنا ملوك
تمشي وراها رجال
تخس الملوك
ان كانوا هيك انذال
والله تيجانهم
ما يصلحوا لنا نعال
احنا اللي نحمي الوطن
ونضمد جراحو

•

يا « سلمى قشقاش » !
(الاسم الحركي : « رجاء العماش »)
عبر مئات الاميال اراك مترسة
خلف الرشاش
تحمين العلم ، الخفاق الى اعلى
من
اقدام
الاوباش
يا « سلمى قشقاش »
اني اكتب هذه الكلمات لعينيك
الظامئتين الى الحرية والحب
ولجبهتك المرفوعة
في وجه الموت المنصب
في وجه الدبابات الهمجية
الدبابات ..
المحشوة ..
نارا ،
وخيانة
آه لو اقدر ان ازرع زهرة
في شعرك .. ازرع زهرة
لو اقدر ان افدي بحياتي
اصغر شعرة
من راسك اصغر شعرة
لو اقدر ان اجعل نفسي
في كفك
رشاشا
للثورة
اني اكتب هذي الكلمات
وعلى كرسي قدامي
في طرف الطاولة الاخر
تجلس بنتي ـ
(بنت ثلاث سنين ـ) « وهيبة »
تنصت للمذياع
وتصاحب اغنية تسمعها اول مرة :
يا عمان يا عمان
احنا ابطالك الشجعان
تركوا الضفة للمحتل
ونهر دمانا عليهم هان
بكره يرفرف علمنا
فوق القدس المحتلة
وفوقك انت يا عمان
يا « سلمى قشقاش »
الف سلام وتحية
لضفيرتك الفحمية
تلعب ..
في وجه رياح الضرب الدموية
في وجه الدبابات الهمجية
الف سلام وتحية
للقلب الظامىء للحب
للعينين
الساهرتين
على
الحرية ..
يا « سلمى قشقاش »
هذا العلم اجمل من ان
يحيا فيه الاوباش
فليزأر ،
في
يدك ،
الرشاش

•

يا « مسعود الشبيان » !
(الاسم الحركي : « نمر العدوان »)
عبر مئات الاميال اراك
تتربص ـ
في زاوية « المدرسة الاهلية »
في احد الاحياء الشعبية
من عمان
معتمدا بيديك على الارض
حتى تنقض
يا « مسعود الشبيان »
عبر مئات الاميال ارى عينيك
في ولع تتقدان
تتفحص ـ عبر سحابة نار ودخان
صفا من دبابات يتقدم
يركض نحوك .. نحو الموت
الموت
المتربص ،
في
شكلك
انت ..
في زاوية المدرسة الاهلية
انك تبدو تمثالا لا يتحرك
انك حتى لا تتنفس
مع اني اسمع عبر مئات الاميال
دقات فؤادك هادئة ورتيبة
انك تبدو تمثالا
قطعة ارض فرزت وانفصلت
واتخذت شكل مقاتل
معتمد بيديه على الارض
حتى .. ينقض ..
ثانية .. اثنتان
النمر المتربص في هيئة انسان
في ..
ومضة
برق
ينقض ..
زاوية الشارع تنقض
انا نفسي ـ عبر مئات الاميال ـ
اهب انقض
يا « مسعود الشيبان » !
الان اراك الان
في زاوية « المدرسة الاهلية »
في احد الاحياء الشعبية
من عمان
لحمك مزروع عشرين شظية
تحمل راسك في كف
والكف الاخرى .. تتقلص ..
تعصر
حفنة
دم
وتراب ..
آه يا « مسعود الشيبان » !
انك لا تقدر
حتى ان تبصر
تلك الدبابة ..
باكلها ،
اللهب
الاحمر
ولغيرك خليت الفرحة
ولنا .. ابياتا من الشعر .

بقلم: موسى صرداوي

"عارف الريس": إعادة الاعتبار للالتزام، ومنحه مضمونًا..

لا يعنى الرسامون كثيرا بالافكار . لكن عارف الريس ـ على عكس المالوف في الفن ـ ، يتجاوز الاطر الاكاديمية، ويقدم لنا لغة وفكرا باللون ، مجالها المسرح السياسي ، وهو احد الفنانين القلائل الذين يهمهم كون اللون لغة يحس ويفكر بها .

واذا كانت بدايات الرؤية البصرية ، هاجسا حسيا ، ملونا برغبة التجسيد ، فان عارف الريس يدرك ذلك جيدا ، بمتابعة تخوم الكون وبالتواصل التشكيلي بين معطيات اللون ومعطيات الاحاسيس والافكار ، والفن لديه ، تعبير عن الانسان ، متحولا ، متفردا بالتجسيد الحي ، والتفاعل الحار مع الطبيعة . لذلك ، فان الوانه ، امتزاج روح الطبيعة في صفاء الوانها متعاكسة او متوازية ، مع وتدرجات الذات القريبة دائما ، المنفية عن ايقاعات الواقع مهما اقتربت منه .

ورؤيته التشكيلية ، تتجسد في معظم لوحاته بحرقة لون ـ في اغلب الاحيان محايد ، ليس حارا جدا ، ولا صافيا ـ وخط مقطوع ، ومساحة مرشوقة بجمالية دينامية . وهو لا يستخدم الفراغ الا نادرا ، وخلفيات معظم لوحاته ليست ساكنة ، بل هي دائما مملوءة بالحركة والتحول ، والتجذر في العمق .

ولان منظوره البصري ، ماخوذ بدلالات الواقع ومياهه ، فهو لصيق به رغم رفضه لحيثياته، ويقدمه لنا ، في صراع ازلي مفتتا ، منسوخا ، متهالكا ، وكانه يبدو بلا توازن او ترابط .

ان لغة عارف الريس اللونية ، تتصاعد في مجال التعبير بحدة ، في رموزه المعبرة عن حركة اشبه بالحركة المسرحية فهو كثير الاهتمام بلغة المسرح وادواته (الشهود ـ الاقنعة ـ الوجوه) ، والحوار قائم على مساحة اللوحة ، تعبيراً عن الرفض والثورة ، وعن بصمات الجريمة والمدنية، وهو ازاء ذلك يجد الحقائق مقلوبة ، حيث نلاحظ ان لا فرق جوهري ، ولا حتى نوعي ، بين القناع والوجه ، بين القدم واليد ، او بين القدم واليد والوجه والقناع ، وهذه الدلالة التي يعلن عنها بما يشبه الصراخ ، تتكرر في اكثر من خمسة عشر لوحة . وهو يجسد ذلك بوعي وعلانية واصرار .

وعارف يرى الانسان محاصرا امام منجزات المدنية البورجوازية ، واكثر اللوحات دلالة على الانسحاق حتى العظم ، امام ما يهدد الانسان المعاصر هي (استهلاك) ، فالموت المعلن من بقايا عظام ادمية ، يقابله ازدهار فاحش فيما لا يعني الانسان شيئا ، فالنتاج البورجوازي في قيمته بعيد عن العطاء الانساني (لا يطاحن ولا يقيت). وهذه اللوحة الى جانب انها رفض قاطع للنتاج البورجوازي ، دلالة حية على قبولنا المستمر بالتخلف ، وعدم تمكننا من فهم طبيعتنا وارضنا وعطائنا ، اذ لما نزل ننجر وراء الادوات البورجوازية التي تطرح في اسواقنا غير محتفلين حقا بهويتنا ، ولا لاخلاصنا بالرغبة الصادقة بمكافحة ما يهزمنا ويشل وجودنا .

والجريمة في لوحات عارف تبدو ناجزة سلفا ، في الالهيات التي تجعلنا نغفل عن واقعنا ، تؤكد هذا لوحة «مسرحية الامم» و « قيود وسلاسل».

ولدى الفنان شهوة عارمة بمعرضه « الحب ، الموت ، الثورة » في الانتقام من صياغات الواقع الفاسد والمتخلف ، فهو يفترس بفرشاته كل الاطر التقليدية ويجعلها مسخا .

واذا كان عالم السياسة محظوراً في الاغلب ، على الفنان في بلادنا ، فان عارف يخترق هذا المحظور بعالم الفن من خلال تواجد الانسان في الثورة .

ويلاحظ أن عارف الريس من خلال اهتمامه بعالم الفن السياسي الملتزم ، يعنى كثيرا بالفن الشعبي الاوروبي ، المعروف عندنا باسم « بوب ارت » ، واذا كان الفن الشعبي في الاقطار الاوروبية ، نقدا عنيفا للظواهر الاستهلاكية ، من عروض مغرقة في السلاسة والاقتصاد وتغلب الافكار فان عارف يستهدف بالتزامه السياسي في الفن ، نفس الغاية ، لكنه لا يعبر عما يرغب فيه ، بفن شعبي عربي الجذور والتراث ، بقدر ما يقدم لنا معاشة الواقع وتطوراته وتحولاته بـ « بوب ارت » اوروبي ، اذ لم يلجا الفنان الى الملح من تراثنا الشعبي ، ولا حتى من فنون الامم القريبة منه ، بقدر ما تناول قضيته الفنية بمعاصرة مبالغ فيها .

ولعل الريس ، كفنان حديث وشاب ، يستهويه فن الشباب الاوروبي الغاضب ، اكثر بكثير من الفنون العربية التي ولدت على هذه الارض منذ مئات الاعوام .

وهو رغم انه لصيق بمعايشة الثورة والواقع، الا انه دائما معني بمزج حركة عنفه من داخل باضواء والوان وهواجس غربته ، وابتعاده واستنكاره للعالم القائم من حوله . لكن الفنان على استعداد دائم للتفاعل الخلاق المتجدد ، وهذه ظاهرة صحية في تناول الفن .

ويلاحظ ان نجاحه فنيا فيما يمس العمق والجوهر للذات الانسانية ـ ذات الفنان ـ اظهر واقوى من نجاحه لدى تناوله العالم الخارجي.

فلوحاته (تمزق ، انحلال ، هذيان ، تيه ، قلق ، ظلال) جاءت اكثر تحسسا للتجسيد الجمالي ، وتوزيع اللون بمهارة ، مع حركة الخطوط المنسابة بتمازج تلقائي . اما في (احتضار ، ثورة وسلاسل ، انفساخ) فهو يهتم بال « ديزاين » والتركيز على الفكرة اكثر من احتفاله الجدي بالفن .

وتتداخل المقاييس الفنية ، في لوحاته تداخلا حميما وغريبا في نفس الوقت . فالى جانب اللمحة الماتيسية ، في (رياح الجنوب) نرى اهتمامه بجمالية براك وبيكاسو في استعماله للمربعات والدوائر والمكعبات بتلاعب فني متقن في (هذيان ، موت وبعث ، الحب والموت والثورة) . وكما انه يستخدم الخط المقطوع والمتعرج، وهي ظاهرة بيكاسوية بعد الخمسينات، فانه يستخدم ايضا الخط الدائري ، الناعم ، الموسوق ، والذي يبدو بلا نهاية ، اما الالوان فهي تتسم في معظم اللوحات بفرح وشفافية وغنائية ، وقدرة على التحكم في تدرجات الانوار والظلال والانعكاسات ، والرجوعات المكثفة بخاصة في التعبير عن الكتلة . واما الاشكال فتتسم بالغرابة ، على الرغم من قدرته على التعبير المركزي في اللوحة ، والترابط الهندسي في توزيع الالوان .

لقد قدم الفنان عارف الريس في هذا المعرض، الحب ، الموت ، الثورة ـ نقدا جيدا ، صارما وعنيفا ، لظواهر مجتمعنا التقليدي ، وهو بلوحاته ال (٢٦) ، اراد ان يحرر مجتمعنا من اغلال الظلم ، وقيود التيه والزوغان وكان ان حقق نجاحا في الفن ، بقدر ما حقق انتصارا للالتزام . هذا الالتزام البعيد عن الصراخ والافتعال الذي يقيد الفنان ويهزمه اكثر مما يحرره . ان عارف الريس في فنه المتطور هذا ، أعاد الاعتبار للالتزام ، ومنحه مضمونا انسانيا عميقا وجديدا .

رقم ١٣

طفلان

"حبر الاعدام": البحث المرير عن وطن اللجوء..

الوطن الذي احمله في قلبي
شيء
والوطن الذي يرفضني
شيء آخر .

فاي شيء هذا الذي تحمله في قلبها « الشاعرة سنية صالح والذي من اجله ، تغني مجموعتها « حبر الاعدام » ؟

واضح ان الصوت في القصائد من امراة ، هي الشاعرة اياها . وهي موضوع القصائد جميعا . فالشاعرة لم تجهد في التفتيش عن موضوع ، او اختياره ، بل عمدت الى عزف منفرد اسود ، على على القلب . وليس في ذلك خطا او سقط ، اذا ما استطاع الشاعر ، بهذا المنحى الذاتي من الكتابة ، ان يضم اليه العالم الكبير « الموضوعي » ، وان ينفذ الى قلبه . فالشخص الانساني ، هو هكذا او كذلك ، ليس لانها « طبيعته الخاصة » وحسب ، بل لانه كائن في هذا العالم . مع القوى الطبيعية ، والمادية، ومختلف نشاطاتها وتعبيراتها .

واذا كانت الرومانسية نشات في اول امر ، ذعرا من نفوذ الاله البرجوازية ، التي جاءت ردا على العلاقات الاقطاعية ، فان الواقعية جاءت مصاحبة « للحرك البشري الجماعي » المنبثق من القاعدة العريضة ، وسط احتدام النضال بين الراسمالية وقوى تسلطها ، وبين الطبقات الشعبية ضحية الاضطهاد القديم .

ثم كان الخروج على الانماط الواقعية ، التي غدت فيما بعد ، تقليدية وغير كافية . اثر التقدم الذي احرزته العلوم الانسانية في اكتشافها للانسان ، وبعد نهوض وسائل فنية جديدة كالسينما ، وتوصل الالوان الفنية المتعددة ، ضمن العمل الواحد ، الى جانب ما افرزته الحروب العالمية والحروب الوطنية وحركات التحرر من نتائج ، تلقاها الوجدان البشري على مرمى المعمورة . ونشا بذلك ما يمكن ان يسمى ، على صعيد « تقدمي » « الواقعية الجديدة » . مقابل المدارس التي تشيع منذ مستهل هذا القرن ، حضارة الغرب .

ليست هذه المقدمة ضرورية ، الا لانها تفيد في الاجابة عن سؤال : الى اي مدى هذا الشعر، ملتزما بلحظته « الحضارية » ، والى اي حد ياخذ بالرؤيا الفنية ، التي لا تهدر مضمون الصراع الانساني المادي ، لحساب انجازات تكنيكية هي من ثمار اغتراب الفن وانتحاره في العالم الراسمالي البشع ؟

انني لا استطيع ان انسى لحظة ، وانا اقرا مجموعة سنية صالح « حبر الاعدام » ، ان صوت هذه القصائد ، مهما كان مثقفا ، وخلوا من الحس النسائي المسطح ، هو صوت امراة عربية. امراة في وقتنا ، تسعى لتحقيق شرطها وبلوغها، عبر مشاركتها ـ المفترضة .. ـ في النضال من اجل استعادة الانسان العربي لحقه في الخبز والحرية والعدالة . امراة معركتها هي معركة كل الذين يدفعون عنهم العبودية والقهر والاستلاب .

واذا كانت المراة العربية ، لم تزل الى الان، « عبدة العبد » ، في حالها الاخير ، فانه من الطبيعي ان ينعكس هذا ليس فقط على بنيتها النفسية والعاطفية التي تستمد شجنها من « الوضع الخاص » عبر التاريخ للمراة بل وبالتالي على اتصالها بالعالم الخارجي الذي صنع ماساتها . وهي لا يمكن الا ان تكون كائنة فيه . فعدو المراة هو هذا العالم بمصالحه وثقافاته ، والانتصار سيكون عليه ، وليس على عدو وهمي . وفي دائرة هذا العالم ، سينال الانسان ـ ومنه المراة ـ وطنه المرجو الكريم .

والان عودا الى السؤال في اول المقابلة : اي وطن هذا الذي تحمله « في قلبها » الشاعرة سنية صالح ، والذي من اجله تغني مجموعتها « حبر الاعدام » ؟

ان وطنها ، هو مكان اللجوء ، وليس مطرح الاقامة . انه الاضطرار ، وليس الاختيار . وانه وطن السلوان ، مجرد السلوان ، وليس ارض البحث والقلق ، وتراوح الفرح والاحزان. ان هكذا وطن ليس ملعبا للحياة ، ولا يستحق ان يكون انشودة انسان يشعر ان هذا العالم ، من حقه . انه رجاء مهزوم مضرج بالخوف .

حواسي طيور تنشد حريتها
وحسدي ملك لقوري ،
ثمة قبور كثيرة تنتظر جسدي

او هذا المقطع :

هات راحتيك يا قبري الامين والذكي (!)
هات طلامك
انا المراة المصابة بالذعر
طمعة واحدة وتغيب شمس الجسد

نرى ، الا يلبي هذا الوطن الذي تخوض فيه ايامنا ، الوطن في واقعه الدامي الراهن ، دعوة الشاعرة . فلماذا السؤال عن وطن آخر ، ما دامت العبور على مد النظر ؟

على ان في الوطن المقبرة ، من جهة اخرى ، قيامه حافله . واذا لم تكن هذه في متناول رؤية الشاعرة ، فلتبحث عنها بجهد واخلاص .على الاقل من اجل خلاصها هي ! ، ومن اجل الخروج من هذه الرؤية المتاهة التي تكتنفها .

واذا كانت الكاهنة الشابة « جوليا ابينولا » قد دفعت حياتها ثمنا لموت ابيها ، بعد ان لم تنقذه صلواتها من المصير القاسي ، فما العمل وسط سطوة الموت . وحيث الله في السماء ، وعلى الارض الانسان ؟

هل نتذكر فقط « ان الرصاص في كل مكان ؟» حتى الهرب لا يجدي ، ما دام كل هرب يفضي الى مكان .

لقد جاء هذا الديوان مرثاه للموتى ، الموتى في حياتهم ، وكان يجب ان يكون مرثاة للموت ، وانتصارا للحياة بحزنها الخلاق العميق . وهكذا رجعت بنا ، الى الوراء ، خاسرا صوتها الجميل بذلك فرصة ثمينة .

(...)